النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

وجهت احدى المجلات الكبيرة فى مصر إلى بعض الكتاب هذا السؤال : « إلى أى حدّ يجب الاقتداء بتركيا فى نواحى نهضتها الأخيرة » ، فحفزنى هذا إلى الكتابة فى موضوع تجنبته زمناً طويلاً ، لا استهانة به فهو جد خطير ، ولكن اشفاقاً مما يثور بالنفس حين تعالجه

— ١ —

الترك العثمانيون اخوان لنا ، نشأنا على حبهم ، ومنحناهم قلوبنا فتمكن بها ولاؤهم ، وشببنا نعدّهم علَم المسلمين الخفّاق فى زمن تنكست فيه أعلامهم ، وجيشَهم المجاهد على حين تفرقت الأجناد ، وتخاذلت الأعضاد . كنا نعد مفاخرهم مفاخرنا ، ومثاليهم مثالبنا ، ونرى صلاحهم صلاحنا ، وفسادهم فسادنا ، ونفرح كلما فرحوا ، ونبتئس كلما ابتأسوا . وكلما نزلت بهم نازلة نصرناهم جهد العاجز بألسنتنا وأموالنا وبأيدينا وُسعَ الأيدى المغلولة ، والأعضاد المغلوبة . ولايزال التاريخ الحديث يدوّى بحادثات المدرعة (حميدية) ، وحروب طرابلس والبلقان ، وقدوم الطيارين العثمانيين إلى مصر ، وغير هذا مما يشهد بالحب الصادق ، والمودة المخلصة

ولقد نشأت على هذا الحب ، لايطربنى إلا ما أطرب الترك ، ولا يسوؤنى إلا ماساءهم ؛ وفيهم نغمت الشعر فشدوت به فى حروب طرابلس والبلقان ، وكتبت فى الحرب الأخيرة أعطف عليهم القلوب ، وأستحث الهمم على الامداد بالمال . ولست أمنّ عليهم بذلك فقد كان فرضاً علىّ وعلى غيرى

ولما قذف جنود الترك الأنجاد بجيش اليونان فى البحر كاد الناس فى مصر وغير مصر يجن جنونهم فرحاً وزهواً

— ٢ —

ثم وقعت هذه الواقعات التى تسمى « النهضة التركية الأخيرة » . فخابت من الناس الظنون ، وتحطمت الآمال ، وتصدعت القلوب ، ووقفوا وقفة من أصيبت آماله فى أخ صميم أو صديق حميم ، يراه قد ركب رأسه ، واشتط فى هواه ، يقطع أواصر الأخوة ، ويصرم حبال المودة ، لايستطيع أن يغضى عن سيئاته وهى وخيمة العواقب ، ولا تطيب نفسه أن يسمّع به ويذيع عيوبه على مسمع من الأعداء

قومى هم قتلوا أميم أخى فاذا رميت يصيبنى سهمى

فوقف يلومه حيناً ، ويجادل عنه حيناً ، ويردّ مقالة الخصماء ، ويحذر شماتة الأعداء ، ويلتمس له المعاذير ، ويتربص به الافاقة من غيّه ، والاياب الى رشده ، ويدعو الله أن يلهمه السداد ، ويهديه سبيل الرشاد . وها نحن أولاء ندعو ونرجو وننتظر

— ٣ —

وبعد فما هذه الأحداث التى تسمى « النهضة التركية الأخيرة » ؟ نستعرض الحادثات لنرى ماهى :

فأما ذود الترك عن حياضهم ، ودفعهم عن استقلالهم ، وإيثارهم الموت الحرّ على العيش الذليل فشنشنة أعرفها من أخزم ، عرف الترك بها فى كل زمان ، وامتازوا بها فى كل ميدان ، وكان لسلفهم فيها غرر مشهورة ، وأعمال مأثورة ، يدوّى بها التاريخ ويشهد بها العدوّ والصديق . فلا ينبغى أن يعد هذا من « النهضة الأخيرة » . فقد كان السلف فيه خيراً من الخلف . كان ميدانهم أوسع ، وعدوّهم أكثر ، وخطبهم أفدح ، وعبئهم أثقل . وتلك ، على كل حال ، محامد ينبغى أن تتقيلها الأمم ، ويتنافس فيها أولو الهمم

وأما عكوف الحكومة التركية الحديثة على إصلاح البقعة التى أبقتها الأحداث فى أيديها ، وتركتها النوائب من الميراث العظيم — عكوفهم على الاصلاح والتعمير والتنظيم فأمر محمود ، وسعى مشكور ، وفرض تأخّر عن وقته ، إذ حالت دونه الخطوب الكارثة ، والمصائب المتوالية ؛ وهم فى هذا الاصلاح ليسوا مبتدعين ولا سابقين ، فهم يحتذون على مثال الأمم التى سبقتهم فى الغرب والشرق . هم فى ذلك مأمومون لا أئمة ، ومقتدون لاقدوة . والأئمة فى ذلك أمم أوربا ، عنها أخذوا وبها اقتدوا . وعملهم فى هذا التقليد ، عمل حميد . والله يهيئ لهم فى ذلك رشدا ، ويهديهم الى الخير أبدا

— ٤ —

وبعد ذلك أمور نجمل الكلام فيها واحدة واحدة ، ثم نلقى عليها نظرة جامعة لنتبين أين مبدؤها ومنتهاها ، ومصدرها ومواردها ، ونرى مكانها من الاختراع أو المحاكاة ، وسنعترف لهم فى هذا بحسناتهم ، ونأخذ عليهم سيئاتهم ، أخذ الصديق الناصح لا العدوّ الشامت ، آملين أن يزدادوا من الاحسان ، وينزعوا عن الاساءة

ونحن إذا خاصمنا القوم فى هذه الأمور فليس خصمنا الأمة التركية جميعها بل الحكومة التركية ، يشاركنا فى رأينا كثير من رجالات الترك الذين حملت كواهلهم أعباء الحرب الأخيرة ، ومهدت أعضادهم لهذا النصر المجيد ، ويشاركنا كثير من العلماء وأولى الرأى ، وكثير من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا

ونبدأ بمسألة الخلافة ، إذ جعلوها فاتحة هذه الأمور ، ومفتاح هذه النهضة ، قائمين بالقول الموجز واللمحة الدالة فى هذا الموضوع الواسع :

مهما يقل القائلون فى صحة الخلافة العثمانية وفسادها ، وجدواها وضررها ، ومهما يفتن المجادلون فى تبيان ماجلبت على الدولة من مصائب ، ورمتها به من عداوة أوربا ، فلا ريب عندى أن الخلافة ما أضرت بالدولة العثمانية قط بل نفعتها أحياناً . ما حاربت أوربا العثمانيين بما كانوا دولة الخلافة ، بل بأنهم دولة مسلمة شرقية . وقد ثارت الحروب منذ نشأت الدولة قبل أن يلقب الخليفة العباسى فى مصر بايزيد الأول بلقب « سلطان الروم » ، وقبل أن يفتح السلطان سليم مصر ويحمل إلى استانبول الخليفة المتوكل على الله . ولم يكن مكان الترك فى الخلافة الاسلامية واضحاً فى معظم أطوار حروبهم ، بل استقرت لهم الخلافة عند المسلمين ودول أوربا أثناء هذا الجلاد المديد ، والحروب المتوالية ، إذ اعترف المسلمون أن رأسهم هو هذه الدولة القوية المجاهدة ، واعترف الأوربيون فى العصور الأخيرة أن للترك أن يتكلموا عن المسلمين كما يتكلم الروس عن المسيحيين . فلم تكن الحروب نتيجة الخلافة ، بل كانت الخلافة نتيجة الحروب ، وهى على هذا لم تكن واضحة ولا ادعاها العثمانيون صراحة إلا فى العصور الأخيرة . . . لو أن أوربا شنّت على الدولة العثمانية غاراتها من أجل الخلافة فلماذا قضت على الدولة التيمورية فى الهند ، ودولة الأشراف السعديين فى المغرب وغيرهما ؟ ووالت غاراتها على المسلمين فى المشرق والمغرب

والحق أن انتحال الخلافة نفع الدولة العثمانية حين ضعفها ، وكساها هيبة وجلالاً فى الشرق والغرب ؛ وقد أدرك ذلك السلطان عبد الحميد فاجتهد أن يمكن هـــذه الخلافة فى نفوس المسلمين كافة ليرهب بهم أوربا

وإن يكن المسلمون قصروا فى الدفع عن الدولة ، وامدادها بالمال والجند ، فماذا عسى أن تستطيع الأمم المغلوبة على أمرها ، الذليلة فى أسر أعدائها . وقد خاف الأوربيون أثناء الحرب الكبرى أن يلقوا الدولة برعاياهم المسلمين فاحتالوا لذلك حيلاً شتى : كان الفرنسيون يأخذون جنود أفريقية يوهمونهم أنهم سيدافعون عن الخلافة والاسلام ، ولم يستطع الانكليز ، بعد تمرّد الرديف المصرى وإبائه أن يحارب الترك ، أن يرسلوا إلى القتال جندياً من المصريين ، فاحتالوا عليهم وأخذوهم عمالاً وراء الجيش . وقد تطوع كثير من المسلمين لنصرة الدولة فى الحرب والسياسة ، ولو كان أمر المسلمين بأيديهم لكان لهم موقف آخر . وقد سمعنا من كبار الساسة الترك وغيرهم أن انكلترا أشفقت من أن تقف بجانب اليونان جهرة ، وتنصرهم بكل قواها فى الحرب الأخيرة ، حين ثار مسلمو الهند وطلبوا منها الابقاء على دولة الخلافة ، وأن هؤلاء المسلمين على ضعفهم عاونوا على انقاذ البقية الباقية من الدولة العثمانية . ولا تنس معاونة أمثال السيد السنوسى وطوافه فى الأناضول وكردستان لتأليب الناس وإثارتهم للجهاد . وقد رأيت بعينى صورة الغازى مصطفى كمال باشا فى قلعة سنوسية أهداها إليه السيد أحمد فلبسها تبركاً

ثم هذه الخلافة العثمانية على وهنها وغموضها كانت فى هذا الزمن العصيب علماً ينظر إليه المسلمون ان لم ينحازوا إليه ، وتنضوى إليه آمالهم ان لم تنله أيديهم ، وتعتز به نفوسهم وترى فى خفقانه ذكرى الماضى العظيم ، وتباشير المستقبل العزيز

ولقد كان إلغاء الخلافة فى هذه الخطوب المكفهرة كلّ رباط حزمة من القصب فى ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ ، وبلّغت أعداءهم أبعد غاية . لا ينكر هذا إلا جاهل بطبائع الأمم أو غبىّ عن تاريخ المسلمين . وأحسب أن الانكليز — مثلاً — كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليبلغوا الغاية التى بلغهم إياها الكماليون بغير بذل ولا كدّ

ولا ريب أن الترك حين دفعتهم نشوة الظفر على اليونان إلى إلغاء خلافة الاسلام قد أخرجوا دولتهم من صف الدول العظيمة إلى صف الدول الصغيرة ، فهم اليوم فى صف دول البلقان ، وإن دول العالم العظيمة كانت تتمنى أن تشترى مكانة الترك بين المسلمين بالجهد الطويل ، والمال الوفير ، طيبة نفوسهم بما بذلوا وما نالوا

يقال إن للثورة آثارها ، وللمحنة أعذارها ، وما كان إلغاء الخلافة ضرورة اقتضاها الاصلاح ، ولكن إفراطاً أدّت اليه الثورة . ونحن نقول مهما يكن السبب فذلك شرٌّ أصاب المسلمين لا محالة ، وإن عجز عن إدراكه الثائرون فى غبار الثورة ، فقد أدركه